

دروس مستفادة مما حصل في العراق

30-4-2003

لن تنعم أمريكا بالأمن ولا بالراحة ولا بالهدوء في العراق، ولن تستقر لا في داخلها، ولا في خارجها، بل ولن تستقر مصالحتها لا في الداخل، ولا في الخارج، وهذا هزيمة نفسية وعاطفية كبرى لأمريكا بلا شك
بقلم د. علاء الدين زعتري

يقول الله تعالى: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ) (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (البقرة: 156-157). وقال تعالى: (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) (آل عمران: 140).

وقال تعالى: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا فَلُمْتُمْ أَتَىٰ هَذَا فُلٌ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران: 165). وقال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى: 30). وقال تعالى: (وَلَوْ يَرَىٰ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا) (فاطر: 45).

ليس المهم سرد الأحداث فقط، بل هي الدروس والعبر والاستفادة من الماضي لتجنب الأخطاء في المستقبل. ولقد مرت بالأمّة أحداث كبيرة؛ آخرها سقوط بغداد، وفيها عبر ودروس، وأجرها بما يأتي:

أول الدروس: هل فعلاً انتصرت أمريكا وحلفاؤها؟

يتحدث الناس عن انتصار أمريكا؛ وأنا أراه ترفوفاً عسكرياً فحسب، وعلى الأقل حتى الآن، ولكن النصر الحقيقي لم يتحقق لأمريكا ولن يتحقق لها بإذن الله، ما دامت الأمة بوعيتها. وإذا كانت أمريكا قد دخلت العراق، واستلمت بغداد، فهي قد سقطت أخلاقياً. فأمريكا لم تلتزم بمواثيق الحروب التي نزلت في الكتب السماوية، ولا بمواثيق بشرية أقرتها القوانين الوضعية، ومن سقط أخلاقياً فيكون سقوطه الكامل قريباً.

لقد سقطت أمريكا دولياً؛ لتحديها دول العالم، ولقد نُشرت أحصائية تبين استطلاعاً عن شعبية أمريكا داخل بعض الدول الصديقة لأمريكا؛ فقد وصلت شعبيتها في بعض تلك الدول إلى 25%، بل إلى 12%، وهي في نزول وانهايار بسبب حملتها الظالمة الجائرة، وتحديها العالم أجمع، فنشعبية أمريكا خلال سنة فقط انهارت أكثر من 50%. والأيام القادمة، والشهور القادمة، والسنوات القادمة تحمل مزيداً من العداة والكُره واليُغص لأمريكا، حتى من الشعب الأمريكي ذاته.

منذ عهد قريب كانت أمريكا تتهم المسلمين بالإرهاب، وليس الغريب أو العجيب أن تتهم أمريكا المسلمين بالإرهاب، فهذا ديدنها، وما هي إلا شهور فينكشف للعالم أن أكبر دولة إرهابية في العالم هي: أمريكا. فقد ثبت باليقين أن أمريكا هي حاضنة الإرهاب، وداعمة الإرهاب، سواء في فلسطين وفي أقطار عدة من العالم. وما حدث في بغداد، وفي العراق، وما تتوعد به الآن دليل على ذلك. سنل وزير الدفاع الأمريكي بعد دخول بغداد: أين أسلحة الدمار الشامل؟ وبإجابة تدل على ما تخفي الصدور، قال: إن أسلحة الدمار الشامل يبدو أنها هُزّبت إلى سوريا!!

وأراد أن يكسب شيئين:

1- أن يقول للناس: نحن ما كذبنا أن في العراق أسلحة دمار شامل، لكن هُزّبتا إلى سوريا.

2- حتى تكون ذريعة لمواجهة سوريا التي بدأت لها التهديدات الآن، وإذا دخلوا سوريا – ونسأل الله أن لا يحقق أمينته – سيقول: هُزّبت إلى بلد آخر، وهكذا دواليك.

لن تنعم أمريكا بالأمن ولا بالراحة ولا بالهدوء في العراق، ولن تستقر لا في داخلها، ولا في خارجها، بل ولن تستقر مصالحتها لا في الداخل، ولا في الخارج، وهذا هزيمة نفسية وعاطفية كبرى لأمريكا بلا شك.

لقد انكشفت أمريكا على حقيقتها، وسقطت شعارات العدالة والحرية، والديمقراطية التي تعنتت بها أمريكا طويلاً. والبرهان على ذلك: ما حدث في العراق بعد سقوط بغداد، فلقد انتهى النظام الذي جاؤوا لإسقاطه، وإذ بالنهب والسلب قد بدأ تحت بصر وسمع ما سمي بقوات التحالف، وبمباركة أمريكية ورعاية بريطانية. أين الحُرِّيَّة التي جاءت بها أمريكا؟. لقد رأى العالم عامة والعراقيون بوجه خاص الفوضى والدمار والإخلال بالأمن والسرقات، فهل هذه هي حُرِّيَّة العراق، كما تفهمها أمريكا.

الدرس الثاني: إن الجيوش والأمم إذا رُبِّيت على خدمة الأفراد وطاعتهم هُزِّمت في لحظات، أما إذا رُبِّيت على طاعة الله – جل وعلا – انتصرت، وعاشت بين الأمم.

ومن آخر الأمثلة في ذلك: ما حدث في العراق، فلما هوى الصنم استسلم الجميع.

وبقراءة التاريخ يلاحظ أن الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد تَبَّه لهذا الأمر، الذي غاب عن أذهان القادة والحكام اليوم:

لما تَوَقَّيْ صلي الله عليه وسلم وكان الموقف الذي وقفه بعض الصحابة من هول الصدمة والمفاجأة، حتى قال بعضهم، كما قال عمر: إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يمِت، وقد ذهب ليكلّم ربه، قام أبو بكر فقال قولته الشهيرة:

(من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت).

فليعمل المصلحون والقادة على جعل الناس يعبدون الله، ويكونوا مع الله في حبه وفي بغضهم، قال الله تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (الأنعام: 162-163)، ولنكن محبة الأوطان وقيادات الأوطان بعد محبة الله الباقي الذي لا يحول ولا يزول.

الدرس الثالث: أثبت المسلمون أنهم عاطفيون، والعاطفة أمر مهم وجميل وجيد، لكن يجب أن تخضع تلك العواطف للعقل، والعقل يجب أن يخضع للشرع.

لاحظوا: بدأ سقوط بغداد بعد العصر! فما الذي حصل عشاءً؟.

المسلمون في صلواتهم كانوا يقتنون في كل يوم، وفي كل صلاة، منذ بدء العدوان العسكري، فما أن حانت صلاة العشاء حتى أوقف القنوت! وكان الجواب الفعلي: انتهى الأمر!

وفي الحقيقة أن حاجة المسلمين للقنوت الآن أكثر من حاجتهم إلى القنوت من قبل؛ لأن العدو الذي جاء هو أعظم ظلماً وطغياناً وكبراً من الظالم الأول.

الدرس الرابع: عدم استعجال النصر، ودوام الثقة بوعده الله، والأخذ بالأسباب المؤدية إلى ذلك.

ولعل من أسباب تأخر النصر: أن الأمة ليست أهلاً له الآن؛ وواقعها يشهد بذلك، وإلا فوعد الله لا يتخلف أبداً، ولكن مع تخلف أسبابه، ووجود موانعه؛ يتأخر، فإذا توافرت الأسباب، وزالت الموانع تحقّق النصر بإذن الله، قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم: 6)).

فلا تستعجلوا النصر، وأبشروا بالخير، وأملوا بالجيل الحالي والقادم، واثبتوا على يقينكم، واصبروا بإسلامكم، وصابروا بإيمانكم، وسترون – بإذن الله – أو يرى أبناؤكم ما يسرُّهم ويسر هذه الأمة.

الدرس الخامس: أظهرت الأحداث مدى الحاجة إلى إصلاح الأمة في عامتها وخاصتها.

ففي الوقت الذي كان الطغاة البغاة يدخلون بغداد ويستبيحون هذه الدولة المسلمة بشعبها المسلم، فإذا مباراة تقام في الوقت نفسه يحضرها أكثر من (50) ألف متفرح!!!

يا أمة ضحكت من جهلها الأمم!!

ألا نستحي من الله؟ ألا نخاف من الله؟ ما أحلم الله علينا! يقول تعالى: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابِّيٍّ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فِإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ قَبِلَ اللَّهُ كَانَ يُعْتَادِهِ بَصِيرَةً (فاطر: 45)).

إن الأمة بحاجة إلى إصلاح في داخلها من أفرادها ومن عامتها وخاصتها، كلُّ منا يبدأ في بيته.

كثيراً ما تتوجه ألسنة الانتقاد، وأقلام التجريح للدول وللمؤسسات، لكن ما مدى تطبيق الإسلام على بيوتنا وعلى أنفسنا؟

ما مقدار قيام المسلم بأمر الله في صلاته، في عبادته، في إنابته، في أخذه بالحق، في ماله، في أكله، في شره، في تربية أبنائه؟.

ألا ترى أنه ما زالت الاستراتيجيات العامة تعج برواها مع اختلاطهم؛ لهواً ولعباً، طعاماً وشراباً؛ تقليداً لأعمال الكافرين، (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) [محمد: 12]، ومقاهي الأترنيت مليئة بالشباب والشابات مع سفاهة ما يرون وخسة ما يستخدمونه في الشبكة العالمية، فعن أبي سعيد رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَتَتَّبِعَنَّ سَتَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ سُبْحَانَ بَيْتِي، وَذِرَاعًا يَدْرَاعُ؛ حَتَّى لَوْ سَلَكَوْا جُحْرَ صَبَّ لَسَلَكَتُمُوهُ"، فَلَمَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟!، قَالَ: "فَمَنْ؟" [1]، والأسواق ما زالت مليئة بما لا يرضي الله؛ من الغش والكذب والتدليس والتعامل بالربا، الذي لم يذكر في القرآن حرب من الله إلا على أكله ومتعاطيه، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) قَالُوا لَمْ نَفْعَلْهَا قَالُوا يَحْرِبُ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ كُنْتُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَطْلُمُونَ وَلَا تَطْلُمُونَ) [البقرة: 278-279].

الدرس السادس: سذاجة الشعوب العربية والإسلامية وبساطتها.

شعوب ساذجة بسيطة، سواء المعجبون بصدام، أو المعجبون بالمرحّبون بأمريكا. كم ضاعت الأمة وهي تصقّق للطغاة. عشرون سنة أو ثلاثون سنة تصقّق لصدّام، وقبل صدّام كانت تصقّق لآخرين هووا وذهبوا، والآن يسقط صنم، فيرحبون بأمريكا ببساطة وسذاجة عجيبة جداً. إذن هذا يحتاج إلى إصلاح الأمة، وإلى بث الوعي فيها أكثر من أي وقت مضى.

الدرس السابع: إن الأمة – في هذه الأحداث – ثبت أن فيها أخباراً وصلحاء، وعلماء ومجاهدين، رجال أثبتت الأحداث صدقهم، وفتحوا صفحات مشرقة بإيمانهم وحسن ظنهم بربهم، ذكرونا بعهد السلف – رضوان الله عليهم – من الرجال والنساء.

الأمة فيها علماء بررة، وصلحاء خيرة، في الوقت الذي كانت فيه بغداد تسقط كانت هناك مجموعات من الأخيار ارتفعت أصواتهم، وجماعات من الشباب الصالحين، والفتيات المؤمنات؛ عبروا عن غيرتهم لدين الله، ولأرض من أراضي الإسلام، ولله الحمد. فالخير موجود في الأمة، وقد ثبت في هذه الأحداث أن هناك رجالاً يتألمون ويتحسرون على واقع أمّتهم.

الأمة فيها خير كثير، ولكنها تحتاج إلى جمع هذه الجهود وترتيبها، حتى لا تذهب هباءً منثوراً، فهذه الطاقات، والقدرات الهائلة من الشباب المتحمس المندفع الغيور، أين العمل الجاد لتوظيف تلك الجهود في خدمة قضايا الأمة المصيرية المستقبلية؟.

الدرس الثامن: كانت هذه المحنة مفيدة للمسلمين الذين بدأوا يصحون من رقادهم، ويرتفعون في مستوى تفكيرهم، ويعودون إلى ربهم، ويتوبون إلى بارئهم، ويدركون ما يحل بهم، وبمن حولهم.

الدرس التاسع: قوة الإعلام وأهميته في الحياة، قال تعالى: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [التوبة: 32]، وقال تعالى: (يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرٌ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [الصف: 8]. فالإعلام هو الذي أدار المعركة أكثر من السلاح! فلو تم إنفاق 50% على الإعلام، و 50% على الاستعداد للجهاد من سلاح وغيره، لكان صواباً، وما ذاك إلا لأهمية الإعلام اليوم، والدعم أو الرعب الذي يبثه، فلا نقل من شأن الإعلام، لأنه هو الذي يؤثّر في الناس الآن.